ماهية العلم وسؤال التقنية
عند هيدغر

كرد محمد

قسم العلوم الاجتماعية - جامعة معسكر، الجزائر

الملخص:

عـــرف مـــارتن هيدغر Martin Heidegger (1889-1976) بكونه مفكر "الكيـــنونة"، زاول بداية من سنة 1909 دراساته في اللاهوت، ثم تلقى دروسا في الرياضـــيات والفلـــسفة والعلوم الطبيعية والتاريخ، نشر سنة 1927 كتابه الشهير "الكينونة والزمان" être et temps.

قـــام هيدغر باستعادة سؤال فلسفي قديم، طرحه أرسطو: ما الوجود؟ وكان الجـــواب هـــو ذاتـــه الذي قدمه أرسطو Aristote في مؤلفه: الميتافيزيقا، وهو أن الوجود يقال على أشكال مختلفة.

وتساؤلات هيدغر التي يعود من خلالها باستمرار إلى تاريخ الفلسفة، لا يمكن بـــأي حـــال مـــن الأحوال أن تصنف ككتابات تاريخية تبتعد عن الواقع وحاضر الإنسان ومعيشه، فعندما يستعيد هيدغر سؤالا فلسفيا قديما، فهو يتساءل أولا وقبل كـــل شـــيء عـــن ماهية الإنسان، وبالأخص عن ماهية العلم وماهية العالم التقني le Monde Technique الـــذي ينتمي إليه إنسان اليوم، وبذلك يكون كل تساؤل عـــند هيدغر يتخذ له كموضوع وجود وواقع الإنسان الراهن الذي يشكل امتدادا للتساؤل الميتافيزيقي القديم الذي بدأ مع فلاسفة اليونان أفلاطون وأرسطو.. وهو: ما الوجود؟

إن مـــا سينـــصرف إليه اهتمامنا في هذا البحث هو تناول موقف هيدغر من مـــسألة العلم التقنية، وبالتالي الميتافيزيقا والحداثة. إن الفلسفة اليوم تحتاج أكثر مما

مـــضى إلى البحث عن أساسها الانطولوجي. هذا الأساس الانطولوجي الذي لن يكـــون شـــيئا آخر غير التفكير اليوم في كل من ماهية العلم وماهية التقنية. ففيم تكمـــن ماهية العلم الحديث؟ وأي مفهوم لكل من الموجود والحقيقة يؤسس لهذه الماهية؟.

1- ماهية العلم الحديث:

لا يمكن اعتبار العلم، في نظر هيدغر، اختراع حديث، وباعتباره يمثل الظاهرة الرئيسية للأزمنة الحديثة، فهو يعني أنه دخل مرحلة جديدة من تاريخه، ترتبط أساسا بالقرن 17م.

وإذا أردنـــا أن نفهـــم ماهية العلم الحديث، يقول هيدغر في محاضرته "عصر تـــصورات العالم" (نشر هيدغر هذه المحاضرة سنة 1950 في كتابه المتاهات بمدينة فـــرانكفورت): "إننا عندما نستعمل اليوم كلمة "علم" نقصد بها شيئا مخالفا تماما لكل من المذهب والعلم في العصر الوسيط وللابستيمي الإغريقي. فالعلم اليوناني لم يكن أبدا علما دقيقا، وذلك لأنه - في ماهيته - لم يكن بإمكانه، سواء من حيث قدرتـــه أو حاجته، لأن يكون كذلك. لهذا السبب ليس من المعقول أن نقول أبدا بـــأن "المذهب الغاليلي" لقانون العطالة صائب، وأن نظرية أرسطو التي تقول بأن الأجسام الخفيفة تحن إلى الأعلى خاطئة" (هيدغر، م: 1995، 140).

يتبين أن كل تمييز يمكن أن يقيمه المرء بين العلم الحديث والعلم القديم، من خلال الفرق في الدرجة ومن حيث التقدم، أمر لا مبرر له، باعتبار أن ماهية كل منهما مختلفة عـــن الأخـــرى، فلكل لفترة مفاهيمها الخاصة ومسلماتها، إن المفهوم الإغريقي لطبيعة الأجـــسام والمكـــان، وللعلاقـــة التي تربط بينهما، تقوم على تفسير مختلف لمفهوم "الكائن"، يتبع ذلك وجود رؤية ومسائلة مختلفة للواقع (هيدغر، م: 1995، 141).

الظاهرة الأساسية للعلم الحديث هي البحث، وتكمن ماهية البحث في ارتباط المعرفة التي تخص الطبيعة بخطة محددة سلفا، والخطة هي التصميم الذي يعين مسبقا كل ما يحدد ويقود إلى المعرفة.

ولتوضـــيح هـــذه الصورة يقدم هيدغر نموذجا عن أقدم العلوم الحديثة، وهو الفيزياء الرياضية.

إذا كانت الفيزياء الحديثة تطبق الرياضيات، فهذا يعود أساسا لكون الرياضيات خاصية موجودة فيها قبليا (Sinclair, M: 2006, 38)، إن أصل كلمة رياضيات إغريقي، وتدل على ما يعرفه الإنسان سلفا في محاولته فهم الكائن، أي حينما يدخل في علاقة مع الموجودات.

إن محاولة الفيزياء الحديثة تفسير ومعرفة الطبيعة بشكل رياضياتي، إنما يعني أنها قد وضعت أمامها شيئا (الكائن)، وحددته بشكل معروف قبليا، وهذا التحديد المسبق في نظر هيدغر هو ما يشكل تصميما ومنفذا لما سيظهر (الواقع). "الفقرة 363 الوجود والزمان" (Heidegger, M: 2005, 275).

فكل علم يتأسس على تصميم معين لمجال محدد يكون بالضرورة علما، تقوم، إذن، ماهية العلم الحديث في ما يسميه هيدغر بمشروع ترييض الطبيعة Géomètrisation de l'espace، ظهرت البدايات الأولى لهذا المشروع سنة 1623 عندما أكد غاليلي في قولته الشّهيرة: "إنّ الطّبيعة مكتوبة بلغة رياضيّة وحروفها هي المثلّثات، الدّوائر وأشكالا هندسيّة أخرى بدون وساطتها يستحيل فهم كلمة واحدة"، بدءا من القرن 17 يكفّ موضوع العلم عن أن يكون الكيف المدرك ليصبح الكمّ المقاس. يقول ألكسندر كويري في ذلك: "إن ما كان على واضعي العلم الحديث، ومنهم غاليلي، أن يصنعوه ليس نقد بعض النظريات الخاطئة ومقاومتها بغية تصحيحها واستبدالها بنظريات أفضل،... لقد كان عليهم أن يجددوا بنية ذكائنا نفسه، فيعيدون صياغة مفاهيمه ويراجعونها ويتصورون الوجود على نحو جديد ويبلورون مفهوما جديدا للمعرفة ومفهوما جديدا للعلم بل كان عليهم أن يستبدلوا موقفا إلى حد ما طبيعيا، هو موقف الحس المشترك، بموقف آخر لا علاقة له البتة بالموقف الطبيعي"، أي – ترييض (هندسة) الطبيعة وبالتالي ترييض (هندسة) العلم –.

قام غاليلي بإقصاء الطّبيعة القديمة المتألّفة من جواهر، أشكال وكيفيّات، وعوّضها بطبيعة جديدة متكوّنة من ظواهر لها صبغة كمّية، وبذلك سيتغيّر معنى البحث العلمي. فالفيزياء الكمّية لم تعد لها أيّ صلة تربطها بفيزياء أرسطو الكيفيّة.

لا يمكن أن نعتبر هذه الصورة قضية علمية، بل هي عرض لمبدأ، هي تجاوز ميتافيزيقي لصورة الطبيعة ذاتها، إن العلم الحديث بهذا الشكل يحرض الواقع، إنه

يستنطقه لكي يتجلى في صورة أسباب ونتائج، أي أن يتجلى في قوالب رياضية وهذا ما يسمى بالقانون والنظرية. ".. أن الأحداث لا يمكنها أن تتجلى بوضوح كما هي، أي بالضبط كأحداث، إلا في أفق القاعدة والقانون. بهذا يكون البحث في مجال الطبيعة من خلال الأحداث إثباتا وإقرارا بهذين الأخيرين، أي بالقاعدة والقانون" (هيدغر، م: 1995، 145).

لا يتخذ العلم موضوعا له ما يظهر وما هو متجلي، إن موضوعه ليس شيئا أكثر من كونه نتيجة لفرضية منهجية.

لقد أصبح الإنسان باعتباره ذاتا (في ميتافيزيقا ديكارت وكانط) هو الموجود الذي يتأسس عليه كل موجود، سواء في كيفية وجوده أو في حقيقته، وأصبح تبعا لذلك العالم (الكون) من حيث هو تصور ما يمكن لنا أن نمتلك فكرة عنه، فالموجود في كليته لا يمكن أن يكون موجودا إلا إذا تم إيقافه وتثبيته من طرف الإنسان في التمثل. "فبحصول الحدث الذي صار معه "العالم صورة مدركة" اكتملت السيطرة على الموجود في كليته بشكل حاسم، وأصبح البحث عن كينونته والعثور عليها يتم في كينونة – الموجود – المتمثلة" (هيدغر، م: 1995، 163).

يقول ديكارت، معيداً تقريبا ما سبق أن قاله ابن سينا: "من السهل علينا أن نفترض أنه ليس هناك إله ولا سماء ولا أرض، وأننا بدون جسم، ولكننا لا نستطيع أن نفترض أننا غير موجودين، عندما نشك في صحة هذه الأشياء كلها، إذن من غير المستطاع لنا أن نفترض أن ما يفكر غير موجود بينما هو يفكر [...] أنا أفكر إذن أنا موجود، وبالتالي فهي أولى القضايا التي تمثل لإنسان يقود فكره بنظام، وهي القضايا يقينا" (سبيلا، م؛ بنعبد العالي، ع: 2001، 49).

سيكون هذا القول، بمثابة إعلان عن بداية لحظة جديدة في تاريخ الميتافيزيقا، هي لحظة ميتافيزيقا الذاتية (Subjectivité)؛ أصبحت الذات ولأول مرة، تُطرح بوصفها أنا مفكرة، لها الثقة التامة في قدراتها الطبيعية، التي تمكنها من التعامل مع الأشياء، بوصفها موضوعات تقابل ذاتاً تتمثلها.

يتضح لنا إذن، أن "الأنا المفكرة" أصبحت أساس وجود الموجود، باعتباره جوهراً فكرياً قبلياً، فحامل الوجود الأنطولوجي ومقومه هو الفكر، وبهذا تكون الفكرة الميتافيزيقية الديكارتية قد أفقدت الوجود أسبقيته، فلم يعُد الوجود يحتل

الـــصدارة، لقد أصبح في ظل هذا التصور تابعاً للفكر، لا يستمد واقعيته من العالم الخارجي، بل نلتمسها في ثنايا الفكر أو الأنا.

كمـــا أن ميتافيـــزيقا كانط ليست إلا فلسفة ترانسندنتالية، فلسفة تبحث في الـــشروط التي تجعل من الموجودات موضوعات للذات ومن ثم تعمل على بناء ما يسمى بنظرية المعرفة. وإذا كان كانط قد اهتم بميتافيزيقا الموضوع، أي رد الموجود إلى موضوع، فإن الموضوع، في النهاية، يعد موضوعا للذات.

مـــا يميز هذا العصر، إذن، هو تحول "العالم" إلى صورة مدركة، لا يكون فيها الموجـــود موجودا إلا من خلال التمثل، وهذا ما لم يكن ممكنا في العصر الوسيط، لأن الموجود هو ما خلقه الخالق، ويكون الموجود موجودا بقدر ارتباطه وتفاعله مع علـــته الفاعلـــة. أمـــا بالنسبة للعصر الإغريقي، فإن الموجود لا يكون موجودا إلا بارتـــباطه بالوجـــود، وهـــذا ما تعبر عنه عبارة بارمينيدس التي تقول: "إن كينونة الموجـــود تنتمي إلى الوجود وتتحدد به". فالموجود لا يتمثل وجوده فقط في كون أن الإنـــسان قد نظر إليه، بمعنى أنه قد تمثله في شكل إدراك ذاتي، فالموجود انفتاح وانكـــشاف، هـــو ما ينفتح من تلقاء ذاته (الخالق في العصر الوسيط، الوجود في العـــصر الإغريقـــي العظـــيم)، وهكذا نرى أن فكرة "الوجود" (L'être) شغلت المفكـــرين اليونانـــيين الأوائـــل، ومـــثلث القضية الأساس في فلسفتهم، و لم تكن الميتافيزيقا منذ أن ظهرت في لحظتها الأولى، تبحث في الموجودات الجزئية، في هذا الـــشيء المشار إليه كهذه الورقة التي أكتب عليها الآن، أو هذه الشجرة التي أراها أمامي، ولكنها كانت ولا زالت بحث في الوجود، بحث يتجاوز الموجود الحسي إلى الموجود الكلي مجرداً عن صفاته التي يتعلق بها، وعن أشكاله التي تُحمل عليه.

يتضح أن مفهوم التمثل الحديث يختلف كليا عن مفهومه كما تجلى في الخبرة اليونانية.

لا يـــشكل العلـــم إلا أحد أوجه الأزمنة الحديثة، إن ظاهرها الأساسية هي التقنـــية، يقول هيدغر: "إن الوضعية الأساسية للأزمنة الجديدة هي الوضعية التقنية" (Heidegger, M: 1985, 31). ليـــست التقنية مجرد تطبيق للعلوم الرياضية في مجال التطبـــيق، فالتقنية على خلاف ذلك تحويل مستقل للعلوم الرياضية، بشكل أصبح معه التطبيق هو الذي يلتمس توظيف العلوم الرياضية للطبيعة في مجالها.

2- ماهية التقنية:

أ - من التقنية إلى ماهية التقنية:

يـــؤكد هيدغـــر في بدايـــة محاضرته "مسألة التقنية" والتي نشرت في مؤلفه "محاضـــرات ومقالات" سنة 1954، على ضرورة التمييز أولا وقبل كل شيء بين التقنية وماهية التقنية، إذ أن التقنية ليست هي ماهية التقنية، أو لنقل أن ماهية التقنية ليـــست هي أبدا شيئا تقنيا، "لم يكن للتقنية، عند هيدغر، معنى تكنولوجي، بل إن لها دلالة ميتافيزيقية، إنها هي التي تميز العلاقة التي يقيمها الإنسان الحديث مع العالم الذي يحيط به، ليس الوضع الأساسي للأزمنة الحديثة بوضع تقني لأننا نجد في هذه الأزمنة آلات بخارية سيتبعها بعد حين المحرك الانفجاري، بل على العكس من ذلك هاتـــه الأشـــياء من هذا القبيل متوفرة في هذا العصر، لأنه عصر تقني" (بوتو، آ: 2004، 20) إن التقنية، إذن، كما يتحدث عنها هيدغر، ليست هي الآلات التقنية، بقـــدر ما هي ذلك الموقف التقني، لأن ماهية التقنية ليس شيئا تقنيا بل هي موقف وميتافيـــزيقا، أي نمط لعلاقة الإنسان بالأشياء المحيطة به. وعندما نقول بأن عصرنا هـــذا عصر تقني فليس لأنه حافل بالآلات، بل إن الأشياء التقنية ذاتها تأخذ دلالتها من الماهية التقنية للعصر.

فالخلط الذي نقع فيه اليوم هو نتيجة عدم قدرتنا على التمييز أساسا بين ماهية الشيء وبين محاولة الإجابة على: ما هو الشيء؟ إن التفكير في ماهية الشيء لا يعني أبدا توجيه النظر نحو الشيء للكشف عن خصائصه وصفاته وهيأته..، فندما نفكر في الماهـــية، فمعـــنى ذلـــك التفكير في ما حددته الميتافيزيقا كمعالم تجعل الوجود يكشف عن وجهه بهذا الشكل أو ذاك.

عـــندما نسأل ما التقنية؟ فإن ذلك يكون بمثابة رسم للطريق المؤدي إلى ماهية التقنية، إن الجواب الأقرب إلينا، هو بالتأكيد اعتبارها أولا وسيلة نمتلكها من أجل تحقـــيق بعض أهدافنا ومصالحنا، وعلى أنها ثانيا فاعلية إنسانية بامتياز، هذا المفهوم هـــو ما يسميه هيدغر بالمفهوم الأداتي والأنتروبولوجي، "التقنية هي وسيلة وفعالية إنسانية" (هيدغر، م: 1995، 44).

رغـــم مـــا تحمله هذه الإجابة من دقة في التصور، إلا أنها في نظر هيدغر لا تكفي للكشف عن ماهية التقنية، "هذا التمثل الأداتي للتقنية هو حقا دقيق، بيد أنه

رغـــم ذلـــك ليس صحيحا، بمعنى أنه لا يكشف بعد عن ماهية التقنية" (بوتو، آ: 2004، 20). ويقـــول هيدغـــر: "إن ما هو دقيق فقط لم يصل بعد إلى كونه هو الحقيقـــي. هذا الأخير هو وحده الذي يضعنا في علاقة حرة مع هذا الذي يخاطبنا انطلاقا من ماهيته الخاصة" (هيدغر، م: 1995، 46).

ســـتكون التقنية في ظل هذا التصور الشائع وسيلة بيد الإنسان يوجهها وفقا لمـــصالحه وأغراضه، وسيكون بالتالي الحديث عن ضرورة التحكم في التقنية، كلما هـــددت بالانفلات من مراقبة الإنسان، فهناك إذن، إرادة في أن نكون سادة على التقنية.

لكـــن إذا لم تكـــن التقنية في ماهيتها وسيلة وأداة، فهل سيكون من الممكن الحديث عن إمكانية للتحكم فيها؟

للاقتـــراب من ماهية التقنية، استلهم هيدغر طريقا مغايرا، طريقا يمر بشكل مباشر بالإغريق.

إن كلمة تقنية ينحدر جذرها من الأصل الإغريقي "تيكنيكون"، وهو ما يشير إلى مـــا ينتمي إلى التخني "techné"، حيث كانت لهذه الكلمة من البداية في اللغة اليونانـــية القديمـــة نفس دلالة المعرفة "épistémé"، أي السهر على شيء، فالتقنية باللغـــة اليونانية "techné" تعني التعرف، من المعرفة، وتعني عمليا على وجه الدقة صنع الأشياء..

"إلى حـــدود فتـــرة أفلاطـــون، كانـــت كلمة تقنية مرتبطة دائما بالكلمة (أبيستينون) وهي تعني العلم أو المعرفة، الاثنان اسمان للمعرفة بالمعنى الأوسع. فهما يعنيان فعل القدرة على الاهتداء في شيء ما" (هيدغر، م: 1995، 53).

التقنـــية في اليونانـــية تعني التعرف على فعل الصنع، والتعرف نوع من العلم والكـــشف والمعرفة، يتأسس فعل المعرفة في التجربة الإغريقية حول فتح وكشف "تجلي" ما هو معطى كحاضر.

وبإيجـــاز فـــإن التقنـــية ليس تصورا للفعل، بل تصورا للمعرفة. تقدم المعرفة انفتاحات، وبما هي كذلك فهي انكشاف (هيدغر، م: 1995، 54). ويعود هيدغر إلى مـــا قالـــه أرسطو في البحث الخاص من "الأخلاق إلى نيقوماخوس"، في الجزء الخـــامس، في محاولـــته إقامة التمييز بين المعرفة والتقنية، إذ يعتبر التقنية شكل من

أشـــكال الأليثيا، فهي تكشف ما لا ينتج ذاته، وما يمكن أن يأخذ هذه الصورة أو تلك، فالتقنية ستكون بالتالي انكشافا وليس صنعا.

التقنية، إذن، كما فهمها اليونانيون هي انكشاف، إنها تعني الإنتاج الذي من خلالـــه تظهـــر إلى الوجود، تنتقل من حالة الاختفاء والتستر إلى حالة اللااختفاء، سيكون معنى الإنتاج هو الخروج من الغياب إلى الحضور، وهذا ما أطلق عليه اسم "الأليثيا".

ب – من التخني إلى التقنية الحديثة أو لحظة اكتمال الميتافيزيقا:

يتـــساءل هيدغـــر عـــن ماهية التقنية الحديثة، وإذا ما كانت هي أيضا تعد انكـــشافا، أم أن التـــباين القائم بين التقنية القديمة الحرفية والتقنية الحديثة الممكننة القائمة على المحركات والمؤسسة على العلم الحديث سيكون دافعا للقول بأن ماهية الانكشاف لن تكون ملائمة لها.

التقنـــية الحديثة هي بدورها عند هيدغر "انكشاف" لكنها انكشاف من نوع خـــاص، فهـــي ليـــست انكشافا بالمعنى الشاعري "البويسيس" Poésis، بل على العكـــس من ذلك هي "انكشاف مساءلة وتحريض" arraisonnement عن طريقها تكـــون الطبـــيعة على استعداد لأن تسلم طاقة يمكن أن تستخرج وتراكم. "تظهر القشرة الأرضية اليوم كحوض للفحم الحجري، والأرض كمستودع للمعادن. كم يـــبدو مخـــتلفا تماما الحقل الذي كان يحرثه الفلاح فيما مضى، في حين كان فعل "حـــرث" ما يزال يعني: أحاط الحقل بسياج واعتنى به. عمل الفلاح هذا لا يحرض الأرض المـــزروعة. عـــندما يزرع الفلاح الحبة، فهو يعهد بالبذرة إلى قوى النمو، ويـــسهر عليها حتى تزدهر. لكن خلال ذلك أدخلت فلاحة الحقول هي أيضا، في حـــركة للفلاحة من نوع آخر، حركة تطالب الطبيعة، بمعنى تحرضها" (هيدغر، م: 1995، 56).

هذا النموذج من الوجود هو شكل من أشكال الحضور، وهو يقدم ذاته إلينا على هيئة مخزون stock، الوجود يحضر كمخزون.

لقـــد أصبحت الأشياء في ظل هذا الوجود، مجرد مواضيع، بل أكثر من ذلك مخـــازن، الأرض ترغم على أن تسلم الفحم والمعادن التي تختزنها، والفلاحة الحديثة هي التي تجعل الطبيعة على استعداد لإنتاج الخضر التي تحملها في باطنها.

الطائرة التجارية الواقفة على أرضية المطار، يقول هيدغر، تخفي ما هي عليه، ولا تنكشف كمخزون إلا بقدر ما تكون مسخرة لتأمين إمكانية النقل، فهي في أجزائها المركبة مسخرة من أجل التحليق (هيدغر، م: 1995، 59).

لم تعد التقنية الحديثة، كما كانت التقنية في الماضي، وذلك لأنها أصبحت اليوم تدعو الطبيعة وترغمها على أن تسلم الطاقات الكامنة فيها، بحيث يتم استخلاص الطاقات والقوى الكامنة فيها والنظر إليها على أنها مجرد مستودع.

عندما يضع الإنسان الباحث الطبيعة في المجال المقابل لذاته والمنفصل عنها، فإنه يكون بذلك قد وضع الأساس الميتافيزيقي الأول الذي يحدد المعالم التي ينبغي للوجود أن ينكشف من خلالها، هذا الانكشاف الذي يظهر فيه الشيء كموضوع.

تكون الفيزياء الحديثة في وجهها النظري القائم على إرغام الطبيعة على أن تظهر نفسها كمركب قابل للحساب، هو ما يجعل الفيزياء في وجهها التطبيقي التجريبي تجعل من الطبيعة مسخرة لاستنطاقها ومساءلتها، وهذا ما يضطر الطبيعة على أن تستجيب تحت تأثير هذا النداء.

إن كلا من العلم والتقنية يشتركان لا فقط في كون العلم تقنيا في جوهره، بل يشتركان كذلك في أنهما معا يتخذان من الطبيعة موقفا جديدا لا موقف المتأمل، بل موقف المسائل المحرض.

إن ماهية التقنية الحديثة يعادل لفظ الميتافيزيقا المكتملة، فالميتافيزيقا الحديثة للذاتية كانت منذ ديكارت تفكيرا في الإنسان كأساس وفق المحورين النظري والعملي للتساؤل الفلسفي.

ففي المحور النظري تقوم الميتافيزيقا الحديثة على اعتبار الواقع خاضعا للمبادئ المؤسسة للعقل، بما فيها مبدأ العلة (ليبنتز) وهو مبدأ ذاتي نقل إلى الواقع مع إضفاء طابع انطولوجي عليه، لا شيء يحدث في الطبيعة ما لم يكن له سبب.

سيتم وفق هذا الاعتبار إخضاع الظواهر الطبيعية لمعايير وقواعد سابقة، هي بمثابة قوالب تجعل الظواهر قابلة للانخراط فيما يسميه العلم بظواهر الطبيعة.

هذه الانتروبولوجيا النظرية، كما يسميها هيدغر، لن تكون كافية لوحدها لتشكيل أساس لسيطرة التقنية كميتافيزيقا مكتملة.

إن التماس حضور الميتافيزيقا المكتملة يتجلى في الوجه العملي كميتافيزيقا للذاتية، إنها تنظر إلى الكائن لا فقط باعتباره ملائم للمبادئ الذاتية للعقل فقط ratio، بل باعتباره موضوع مسخر للإرادة.

يكون كانط، وبتحويله للأنا أفكر إلى أنا أريد قد شكل الخطوة الحاسمة في اتجاه تأويل تقني للعالم. الإرادة عند كانط لا تفهم إلا في ظل ابتعادها عن الغائية، فهي حرة لا تتبع شيئا آخر، لا تريد غير ذاتها، هي بتعبير لوك فيري إرادة الإرادة.

تتحدد استقلالية الإرادة عند كانط كمعلم أساسي من معالم إضفاء الطابع التقني على الواقع.

مع نظرية نيتشه سيظهر وجه آخر للإرادة بوصفها إرادة الاقتدار، وهي وإن كانت تبدو في الظاهر وكأنها تريد شيئا آخر غير ذاتها (القدرة)، إلا أنها تمثل إرادة إرادة، ذلك أن إرادة الاقتدار لا تسعى إلى مزيد من القدرة (السيطرة) إلا لكي تشعر الذات تبعا لذلك بأنها إرادة تتحكم بشكل أكبر في الواقع وتسيطر عليه، فهي إذن إرادة إرادة.

لقد تحول العقل من ديكارت إلى نيتشه إلى عقل آداتي، و لم تعد الإرادة موجهة لتحقيق غايات وأهداف (تحقيق حرية وسعادة الإنسان) بل أصبحت تبحث عن التحكم من أجل التحكم والمزيد من التحكم (السيطرة من أجل السيطرة).

ترتب عن هذا الارتباط بين الميتافيزيقا وسيادة إرادة التحكم نسيان الكينونة، فالميتافيزيقا في تاريخها لم تنتبه إلى الكينونة، تركت الكينونة في طي النسيان وهذا لصالح فكر حاسب، لم يعد هذا العصر الذي تسود فيه فكرة الهيمنة والسيطرة سوى عصر العدمية بمعناها الانطولوجي الذي لا أهمية فيه للكينونة (Gordin, J: 2002, 194).

ج – هيدغر والخطر:

إن الخطر الذي تحسسه هيدغر يأتي من ماهية التقنية باعتبارها استفسارا، "إن مصير الانكشاف ليس في حد ذاته خطرا من بين الأخطار، بل هو الخطر عينه، لكن إذا كان المصير يسودنا على طريقة الاستفسار، فهو إذن الخطر الأقصى" (هيدغر، م: 1995، 73).

يتجلى الخطر على وجهين، فعندما نعتبر الموجود لم يعد حتى مجرد موضوع، بل هو مخزون وأساس فذلك يمثل الوجه الأول للخطر، أما الوجه الثاني فهو اعتبار الإنسان هو المسخر للمخزون والأساس، هذا ما يترتب عنه أن يعامل الإنسان ذاته إلا من حيث هي أساس ومخزون.

ستكون علاقة الإنسان بذاته، وعلاقته بالكائن مهددة، "الفقرة 68" (Heidegger, M: 2005, 73) ولن يكون هناك في ظل هذا الانحلال والتفكك، (تصدع علاقة الذات بذاتها وبالعالم) أي إمكانية لتنكشف بها الكينونة بشكل آخر غير شكل الانكشاف المسخر. وبذلك سيفقد الإنسان كل المسالك والطرق المؤدية إلى فهم الكينونة، بشكل لا تكون فيه الذات ذاتا منغلقة على العالم الخارجي، بل كذات قائمة في إطار وجود في العالم، وفي علاقاتها مع الأشياء كأشياء نرتبط بها في وجودنا، وليس كموضوع أو كمخزن.

نتساءل اليوم، أكثر من أي وقت مضى: أين ذهبت الأشياء؟ هل يمكن أن تعود؟ وكيف يمكن أن تعود؟ وهل نستطيع أن نفعل شيئا ما لكي تعود؟ حتما ستعود الأشياء، لكننا لا ندري متى ولا كيف؟ عودتها مرتبطة أساسا بما يمكن أن يفعله الإنسان محددا لها الطريق الحر الذي يستدعيها من خلالها.

الانكشاف كاستفسار يخفي نمط آخر من الانكشاف، فالاستفسار يحجب عنا الحقيقة.

إن توجه الانكشاف نحو الاستفسار هو الخطر، الخطر الذي تكمن دلالته في اعتبار الاستفسار قدرنا ومصيرنا، خطر لا يأتي من التقنية من حيث هي مجموعة من الأدوات والآلات، حتى وإن كانت هذه الأدوات قاتلة، فلا مجال للحديث إذن عن ما هو شيطاني في التقنية كأداة، بل على العكس من ذلك فإن الخطر هو ما أصاب الإنسان في كينونته، وما يهددنا هو احتمال أن لا نجد إمكانية للعودة بالإنسان إلى ماهيته الأصيلة للإنصات لنداء الوجود في حقيقته الأولى. يقول هيدغر: "يجب أن أقول أنني لست ضد التقنية، لم أقل أبدا شيئا ضد التقنية، ولا ضد ما يسمى شيطانيا في التقنية. ولكنني أحاول أن أفهم ماهية التقنية" (هيدغر، م: 1999، 128).

3- الفكر ومجازة الميتافيزيقا:

يستحضر هيدغر مقطعا من قصيدة لهولدرلين (باطموس patmos)، يقول فيها:

"لكن هناك حيث يكون الخطر
ينمو هناك أيضا ما ينقذ".

لا يدل الفعل "أنقذ" عند هيدغر على معنى "الإبقاء على شيء يكون مهددا بالزوال، وإنما أكثر من ذلك فإن فعل "أنقذ" يفيد معنى "السير نحو الماهية من أجل إظهارها لأول مرة" يعني ذلك أن الكشف عن ماهية التقنية هو الفعل الذي سيسمح بنمو ما ينقذ. فما ينقذ يقع في عمق ذلك الذي هو الخطر الأقصى "سيطرة الاستفسار" (هيدغر، م: 1995، 75).

إن كينونة التقنية ومن خلال حصرها لكل انكشاف في التسخير والإنجاز وتقديم الأشياء في شكل مخزون وأساس تتهدد الانكشاف ذاته، ولهذا ينبغي علينا أن نبقى مبصرين وموجهين أبصارنا نحو هذا الخطر الأقصى، وعلينا أن ندرك في نظر هيدغر أن "الفعل" الإنساني لا يمكنه أن ينجز بأي شكل من الأشكال فعل "الإنقاذ".

تعد التقنية اليوم أعظم خطر يواجه الفكر التأملي (الفلسفي)، وذلك لهيمنة وسيطرة العقل الحسابي على الطبيعة، ولكونها تجسد أيضا لحظة اكتمال الميتافيزيقا "الفقرة 136" (Heidegger, M: 2005, 121).

يبقى التأمل الإنساني وبارتباطه بماهية التقنية، وبماهية الكينونة المفقودة والمهددة، هو ما يمثل سبلنا نحو الإنقاذ.

على الفكر المتأمل أن يسجل قفزة بواسطتها نخرج من مجال الميتافيزيقا التي وصلت إلى تمامها مع التقنية.

كلما استطعنا أن نقترب من ماهية التقنية من حيث هي استفسار، كلما توضحت الطرق التي تؤدي نحو الإنقاذ، التساؤل يرسم الطرق، وهذا ما يمثل مسار الفكر.

إن منبع التساؤل هو في الشعور بالخطر، فنحن عندما نشعر باقتراب الخطر تتضح لنا أكثر السبل التي تقود نحو ما ينقذ، وبذلك يصبح التساؤل علامة إلى ما

ينبغـــي الـــتوجه إليه، إن إثارة السؤال هو المسار الذي يجعلنا نقيم بجوار الوجود، "الفقرة 6" (Heidegger, M: 2005, 27) وليس الركون إلى الإجابات والإثباتات التي تموضعت فيها أقال الحقيقة.

مـــا يـــسعى إليه الفكر هو الكشف عن الكينونة والحرية، بإبعاد الإنسان عن هيمنة الميتافيزيقا باعتبارها ميتافيزيقا الذاتية.

إن التقنـــية بمـــا هي تجل لاكتمال الميتافيزيقا، تكون قد استحوذت على الأرض، و لم يعـــد للفكر اليوم أي موطن، فهو بدون إقامة مغتربا في اللاسكن، ســـحبت التقنـــية مـــنه إقامته لتصبح الأرض ككل منطقة للتخزين. إن دعوة هيدغر ومن خلال تأمله في ماهية التقنية، وفي ماهية الإنسان بالتالي وفي علاقته بـــالأرض وبالأشـــياء تأكيد على ضرورة ربط الفكر بتربته الأصيلة، إن إقامة الإنسان على هذه الأرض هي إقامة شعرية في العمق، وأن تكون الإقامة شعرية في العمـــق، فـــذلك يعني أن الوجود في العالم هو هبة وليس استحقاقا، يقول هولدرلن:

"غني بالمزايا الإنسان، لكنه يحيا شعريا على هذه الأرض"

(هيدغر، م: 1994، 63).

الهوامش:

1. بوتـــو، آلان 2004: مـــشكل الحداثة عند مارتن هيدغر، ترجمة: عبد العزيز عبقري، مجلة مدارات فلسفية، العدد 10، ص 16-29.
2. ســـبيلا، محمـــد بنعبد العالي، عبد السلام 2001: الفلسفة الحديثة – نصوص مختارة – الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق.
3. هيدغر، مارتن 1994: إنشاد المنادى، ترجمة: بسام حجار، ط1، المركز الثقافي العربـــي.
4. هيدغـــر، مـــارتن 1995: عصر تصورات العالم، ترجمة: سبيلا محمد، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربـــي.

5. هيدغر، مارتن 1995، مسألة التقنية، ترجمة: مفتاح عبد الهادي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربـــي.
6. هيدغر، مارتن 1999: "الفلسفة والمجتمع"، ترجمة: إسماعيل المصدق، مجلة فكر ونقد، العدد 23، ص 121-136.
7. Gordin, Jean 2004: La métaphysique, elipses.
8. Heidegger, Martin 1985: Concepts fondamenteaux, Gallimard.
9. Heidegger, Martin 2005: Être et temps, tr. Emmanuel Martineau.
10. Sinclair, Mark 2006: Science et philosophie dans être et temps, noésis, centre de recherche d'histoire des idées (CRHI), 29-43.